قصص القرآن

نبأ ابني آدم والغراب

قلم: أحمد بهجت

ريشة: مصطفى حسين



دار الشروق

الطبعــة الأولــى
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الطبعــة الثانيــة
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

الطبعــة الثالثــة
١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

© دار الشروق
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٢٩٣٣٣ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣ برقيا : داشروق ـ تلكس : SHOROK 20175 LE

قصص القرآن

نبأ ابني آدم والغراب

قلم : أحمد بهجت   ريشة : مصطفى حسين

دار الشروق

بدأت الحياةُ الإنسانيةُ بِهبُوطِ آدمَ وحوّاءَ إلى الأرضِ ، كانت حوّاءُ تلدُ في البطنِ الواحدِ توأمينِ ذكراً وأُنثى . . فإذا مر عَامٌ ولدتْ في البطنِ الثاني ولداً وبِنتاً . .

ولم يكنْ يَحِلُّ للولدِ أن يتزوّجَ من شَقيقتِه التي وُلِدتْ معه في نفسِ البطنِ ، إنما كان يَستطيعُ الزَّواجَ من ابنةِ البطنِ الثانيةِ ، باعدَ الله بينهُما كما باعدَ بين الأقاربِ . .

في ذلك الزمانِ البعيدِ ، حين كان بالوُجودِ آثنانِ من أبناءِ آدمَ . . وقعتْ هذه القصةُ لهما . .

تَزوجَ الولدُ الذي وُلِدَ في البطنِ الأولِ بالبنتِ التي وُلِدَت في البطنِ الثاني . . وتَزوجَ الولدُ الذي وُلِدَ في البطنِ الثاني بالبِنتِ التي وُلِدَت في البطنِ الأولِ . .

وكان أَحدُ الأخوينِ غيرَ راضٍ عن زَواجِهِ حيث كان يرىٰ زوجةَ الآخرِ أَجملَ من زوجتِه .



وبدأَ هذا الأخُ يَحِسُّ بالكَراهِيةِ نحو أخيهِ .

كان آسم هذا الأخ قابيلَ . . أما الأخ الثاني فكانَ آسمهُ هابيلَ . .

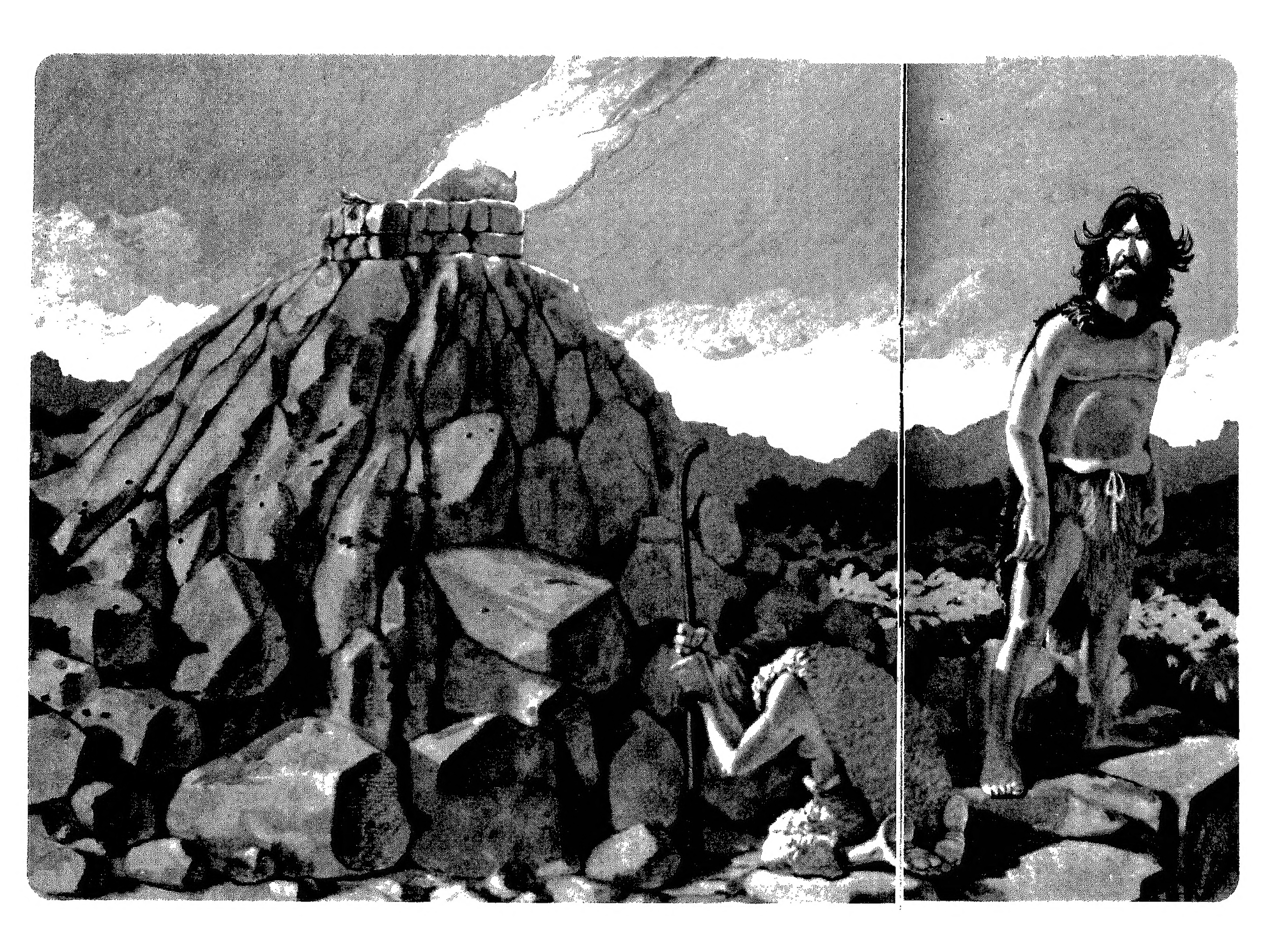
كان قابيلُ قويَّ الجسدِ حادَّ المَلامِحِ ، ولم يكنْ راضياً عن حظِّه في الزَّواجِ ، وبالتالي فقد كان يَحسِدُ شَقيقَه هابيلَ . . وبقدرِ ما كان قابيلُ عَنيفاً وصارِماً كان هابيلُ وَديعاً وَلطيفاً ، وكانتِ المشاعرُ الداخليةُ التي تملأُ قلبَ كلِّ واحدٍ منهما تَنعكِسُ على وجهِه وتَظهرُ على ملامِحِه . .

وذات يومٍ أَمر آدمُ ولـديهِ أن يُقـدِّما قُرباناً لله . .

سأَلاهُ : ماذا يعني بالقُربانِ ؟

قـال آدمُ : القُـربـانُ هـديـةُ شُكـرٍ إلى الله . . إذا تقبَّلَهـا الله سُبحـانَـه وتعـالىَ ، فسوفَ تَنـزِلُ من السماءِ نـارٌ تَلتهِمُهـا . . وسيكـونُ هـذا إيـذانـاً بِقُبـولِ الله لهـا . . آنصـرفَ الأخـوانِ وجاءَ عيدُ الشُّكرِ . .

كـان قـابيـلُ غَنياً ولكنَّـه لم يكنْ كَـريمـاً . . وراحَ يُفكِّـرُ مـاذا يُقـدِّمُ للسماءِ . . وخشِيَ على كِباشِه وعُجوله وقـرَّر أن يُقـدِّمُ بعضَ أَعــوادِ القمـحِ الضَّعيفةِ التي قَدَّرَ بينه وبين نفسِه أنها لا تَصلُح لِصناعةِ الخُبزِ . . كان سَيـرميها عـلى أَيِ حـالٍ . . لـم يـكـن لِيستَخدِمَها . . هكذا فكَّر قابيلُ .



أَما هابيلُ فكان رغمَ فقرِه كَريماً . . حيثُ قـرَّر أن يُقدِّم لِلقُـربـانِ أَسمنَ الكِباشِ .

وتوجَّهَ قابيلُ وهابيلُ إلى الجبلِ . .

صَعِدا جُزءاً منه ووضعَ كلُّ واحدٍ منهما قُربانَه . .

وضعَ هابيلُ كِبشَهُ السَّمينَ . .

ووضـعَ قـابيـلُ حفنـةً من أَعـوادِ القمحِ . .

وآنحـدرا من الجبـلِ وَوقفـا عنـد سَفحِه يَنتظِرانِ . .

هبطتْ من السماءِ نـارٌ أَكلتْ قُربـانَ هابيلَ . . وظلَّ قُربانُ قابيلَ على حالـهِ لم يمسَسْه شيءٌ .

آنحنى هابيلُ يَسجُد لله . .

ووقفَ قابيلُ يُحـدِّقُ في هابيـلَ . .

ومن أعماقِ رُوحِه تَصاعدتْ مَوجةٌ من الغضبِ والكَراهِيةِ . .

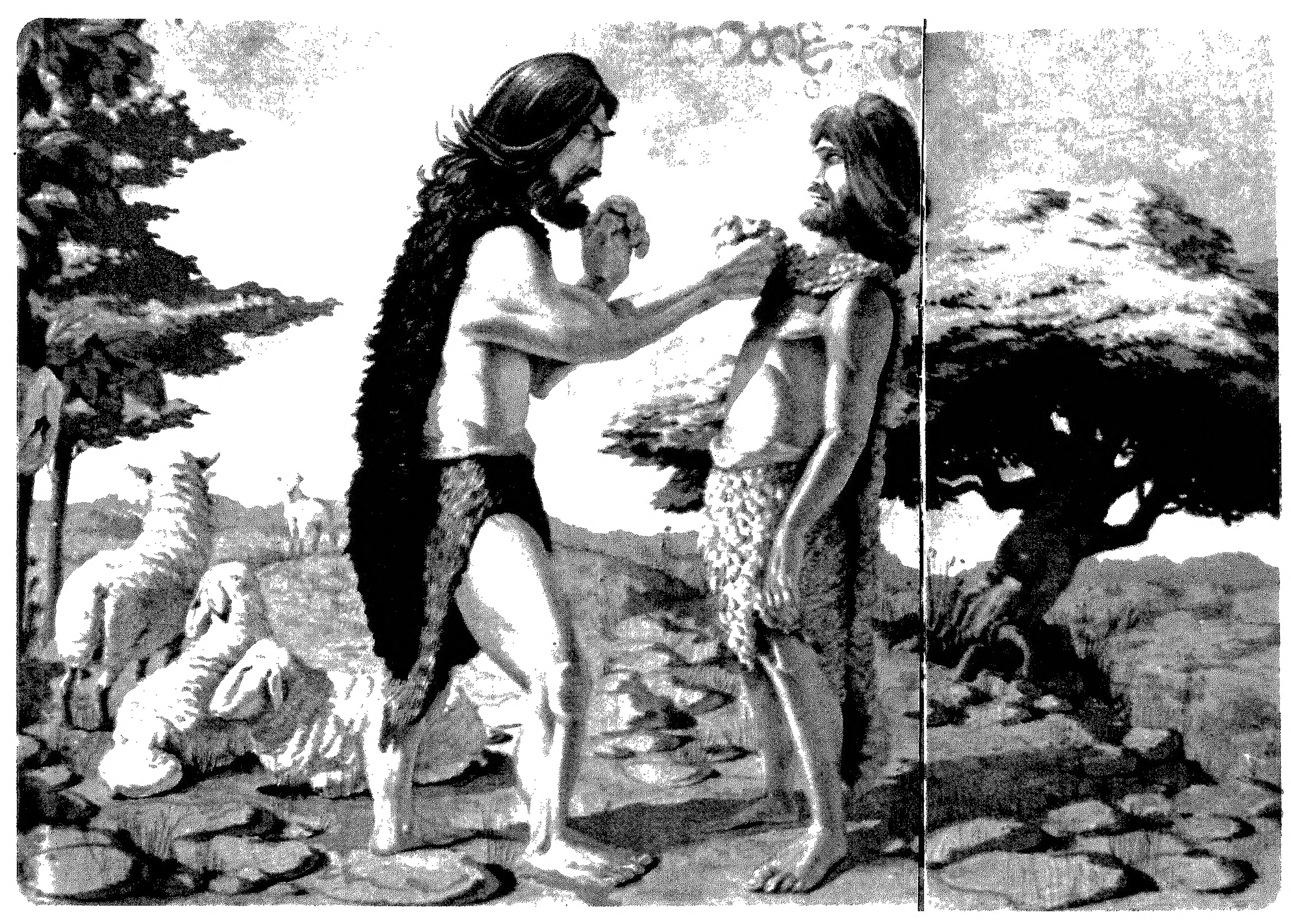
وأدركَ قابيلُ أن الله يُحبُّ أخاهُ أكثرَ ممـا يُحبُّه . . أدركَ أن الله قـد تَقبَّلَ من أخيهِ ولم يَتقبلْ منه ، وبَدلاً من التَّوبةِ المُطهِّرةِ وإصلاحِ الذاتِ ، آحترقَ قلبُ قـابيـلَ بكـراهيـةٍ عَميقـةٍ نحو أخيـهِ . . ووسـوسَ إليـه الشيطانُ أن يَقتُلَه . . كـانتْ نَظراتُـه على البُعدِ تَكشِفُ قـاعَ رُوحِه التي تَمـوجُ بـأفكـارِ الشرِّ والجَريمةِ .

آنفردَ قابيلُ بشَقيقِه وسـألَه : لمـاذا تَقبَّلتِ السماءُ قُربـانَـك ولم تَتقبَّـلْ هَدِيَّتي . . قال هابيلُ : لا أعرفُ لماذا حـدثَ ذلك ، ولكنِّي أعتقـدُ أن قلبـكَ ليس صـافيـاً لله ، لـو صَفـا قلبُـكَ لله لَتقبَّلَ الله عَمَلكَ وقُربانَك . .

قال قابيلُ : ﴿ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ .

قـال هابيـلُ : لا تَغضبْ يا قـابيلُ ، ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ . . لـو نَـدمْتَ الآن وعُـدتَ إلى الله فسـوف يَتقبَّلُ منك .

قال قابيلُ : ﴿ لَأَقتُلَنَّك ﴾ .



قال هابيلُ : ﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَـا أَنَا بِبَـاسِطٍ يَـدِيَ إِلَيْـكَ لِأَقْـتُـلَكَ . . إِنِّـي أَخَـافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قـابيـلُ (ثـائـراً) : سـأَقتُلُك ذات يومٍ . . ثق أنني فاعلٌ .

هـابيـلُ : لن أُقـاوِمَـك لـو حـاولتَ قَتلي ، ﴿ إِنِّي أُرِيـدُ أَن تَبُـوٓأَ بِـإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ .

آنصرفَ قابيلُ ثائِراً ومضَى يُفكِّر . .

أحسَّ أنـه في حـاجـةٍ إلى أن يسيـرَ

طَويلاً حتى يُهدِّىءَ من نفسهِ الثائِرةِ . . كان الشيطانُ يُفكِّرُ معه ويَسيـرُ جِوارَه أو يَنبُضُ في دمائِه ويُوسوِسُ إليه ويُزيِّنُ لـه فِكرةَ القتلِ . .

قـال قابيـلُ لنفسـهِ : لقـد آن الأوانُ لإزاحتِـه من طـريقي . . إن التَّخلُّصَ منه سوف يُكسِبُني أرضَه وزوجتَه . .

ومضى قـابيلُ يسيـرُ حتى آنتهى إلى شجرةٍ يرقُدُ جِوارَها حِمارٌ ميتٌ . . كان الحِمارُ قد مات منذ قليـلٍ . . وهبطتِ الـطيورُ الجـارِحةُ عليـه من كـلِّ آتجـاهٍ ومضتْ تَلتهِمُ لَحمَه . .

بعـد ساعـاتٍ قليلةٍ كان الحمـارُ قد تحـولَ إلى هيكـلٍ عـظميٍّ . . ووقفَ قابيلُ يرقُبُ المشهدَ . .

إن الصـراعَ يَجـري في كـلِّ مكـانٍ على الأرضِ ، فلمـاذا لا يَنقضُّ على شَقيقِه كما تَنقضُّ هذه الطيورُ الجارِحـةُ على المـأدُبـةِ التي هـيّـأَهـا مـوتُ الحمارِ . . .

آقتـربَ قـابيـلُ أكثـرَ من الحمـارِ فَـطارتِ الطيـورُ مُبتعدةً عنـه . . تأمَّـلَ قابيلُ الحمارَ . . .

تأمَّلَ فكَّـه . . ألا يصلُح هذا الفكُّ سـلاحاً يَتخلَّصُ بـه من أخيه ؟ مـد يدَهُ وآنتــزعَ فـكَّ الحمــارِ من الهيكـلِ العظميِّ وحملَه ومضَى به .

قــال لنفسِـه : من يَــدري . . قـد يُخلِّصُني هذا الفكُّ من أَخي !

فكَّر قابيلُ طَويلاً في جَريمتِه قبل أن يَرتكِبهَا . . كـان يعلمُ أن شقيقَه هـابيلَ يحبُّ الطبيعةَ ، وكثيراً ما ينامُ في كهفٍ صخريٍّ تُطِلُّ فَتحتُهُ على الحَدائق .

قـال لنفسِه : سـوف تَحينُ فُـرصتي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حين يدخلُ الكهفَ وينامَ . .

وجاءَ يومُ الجريمةِ . . ودخلَ هابيلُ إلى الكهفِ ونـامَ فيه كعـادتِـه . . كـان هـابيـلُ مُـرهَقـاً لم ينمِ الليلَةَ السـابقـةَ كُلَّها ، سهِرَ فِيها إلى جوارِ زوجتِه التي كانت تتألَّمُ وتَتهيَّأُ لميلادِ طِفلِها الأول ، وفي الصَّبـاحِ المُبكـرِ صحبَ زوجتَـه وذهبَ بهـا إلى أُمِّهما حـواءُ ، لكي تلدَ عندها . . ثم ولدتْ ذكراً وبِنتاً جميلينِ فيهما صفاءُ هابيلَ . .

آستراحَ هابيلُ أَخيراً وجاءَ إلى كهفِه الأثيـرِ ، وسُرعـانَ مـا آستغـرقَ في النومِ . .

آنتـظرَ قابيـلُ حتى تأكـدَ أن شقيقَـه نـامَ ، ثم تسلّلَ إلى الكهفِ وهو يُشـدِّدُ قَبضَتَه على فكِّ الحمارِ . .

كان ذهنُه يَموجُ بتيَّارٍ من الشرِّ الذي يَهُـزُّه هـزّاً رغم صـلابتِـه . . وكـان الشيطانُ قد أَقنعَه بفكرةِ القتلِ وسوَّلَهـا له حتى آنطبعتْ في قلبِهِ . .

وآقتـربَ الشرُّ المسلَّحُ من الخيـرِ النائمِ ، آستغلَّ الشرُّ فرصةَ نومِ الخيرِ ورفـعَ يَده وهـوَى بهـا على شقيقِـه . . .

وتـدفَّقَ دمُ الشقيـقِ يَجـري علـى الأرضِ . .

مات هابيلُ . .

سـكـنـتْ حـركـتُـه وآسـتـسـلَـمَ للموتِ . . أَحسّ قابيـلُ بالفـزعِ حين هَمدتْ حركةُ أَخيهِ تماماً وآستلقَى على ظهره ودمُه ينـزفُ . . توقَّفَ قـابيلُ عن ضربِ أخيهِ وهزهُ فوجـدَه لا يَتحركُ . .

آمتلأ قلبُه بخـوفٍ باردٍ ولم يعـرفْ ماذا يفعـلُ . . ناداهُ فلم يُجبْـه . . وحـدَّثـه فلم يَلتفِتْ إليه . . وأَدركَ قابيلُ أنه قتلَ شقيقَه . .

كـان هابيـلُ أَولَ إنسانٍ يمـوتُ على سـطحِ الأرضِ ، وكـان مـوتُـه أولَ جـريمـةِ قتـلٍ تقـعُ في الـوُجـودِ الإنسانيِّ . . لَم يكن قد مات قبلَ ذلك من البشرِ أَحدٌ . .

وحارَ قابيلُ ماذا يفعلُ بجسدِ شَقيقِه الذي سكنتْ حركتُه ، وحارَ قـابيلُ أين يُخبِّئُه ويُخفي جَريمتَه . .

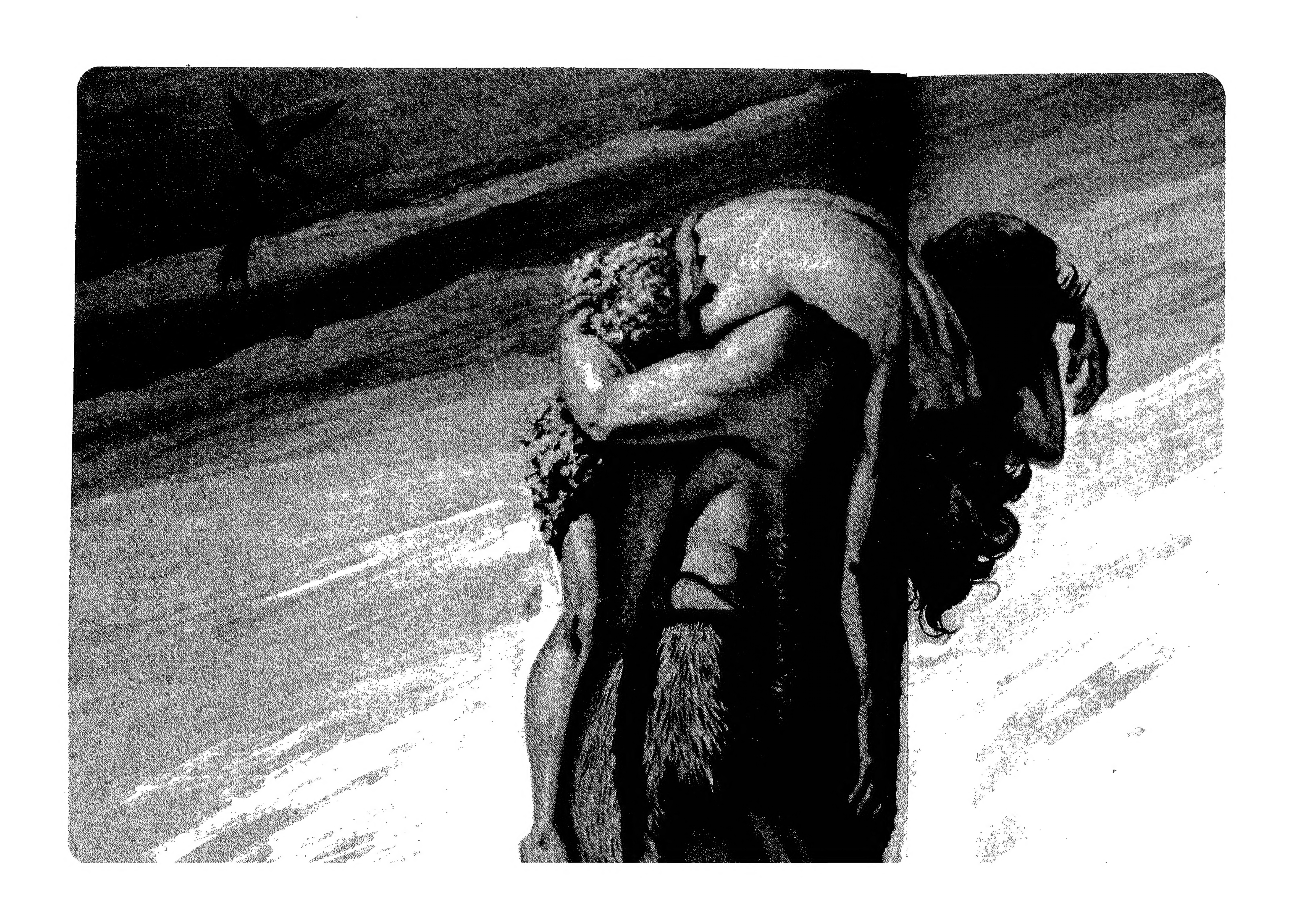
وهكـذا حملَ قـابيـلُ جسـدَ شقيقِهِ الميِّت هـابيلَ ومضى يَسيـرُ به . . أَرادَ أَن يُخبِّئَهُ في مكانٍ بعيـدٍ حتى لا يصلَ إليـه أحـدٌ . . لم يجـدْ مكـانـاً يصلُح لذلكَ . .

ظـلَّ يسيـرُ حتى تعِبَ ، ثم مـزّقَ الهـواءُ صوتَ طـائرٍ يصـرُخُ ، أَفـزعتْـهُ الـصـرخـةُ ومـلأَتْ نفسَـه بشُـؤْمٍ مجهولٍ . .

آلتفتَ القاتلُ فرأى في السماءِ غُراباً يـطيرُ وهـو يُمسِكُ بمنقـارِه شيئاً لم يتبيَّنْه .

وزادتْ حِيرتُـه وآشتـدَّ إحساسُـه بـالفزعِ . . وأَحسّ بثِقـلِ أَخيه كـأنـه يحملُ جبلاً ضخماً .

وقف قـابيـلُ ووضـعَ شقيقَـه على الأرضِ وهـو لا يعـرف مـاذا يفعـلُ أو كيف يتصرَّفُ . .



كـان حائِـراً تَمـوجُ نفسُـه بمشـاعِـرَ مُـختـلِطَةٍ مـن الـخـوفِ والـرُّعـبِ والقلقِ . .

ثم آقتربَ الغُرابُ فرآهُ قابيـلُ يحمِلُ غُـراباً ميِّتاً . . وضـعَ الغُـرابُ الحيُّ شقيقَـه الميتَ على الأرضِ وسـاوَى أَجنحتَـه وحفـر لـه حُفـرةً بمنقـارِه وأَقـدامِه ، حتى إذا صنـعَ لأخيهِ لحـدَه

وقَبرهُ ، رفعهُ بِمنقـارِه وَوضعهُ بـرفقٍ في قبره . ثم صرخَ صَرختينِ قَصيرتينِ كأنه يَبكيه وعادَ يهيلُ عليه الترابَ . . بعدها طارَ في الجوّ وهو يَصرخُ . .

وأدركَ قـابيـلُ أن الله بعثَ إليـه من يُعلّمُه دَرسينِ معاً في وقتٍ واحدٍ . .

أما أَحدُ الـدَّرسينِ فقد عَـرفَه قـابيلُ على الفورِ . .

أما الدرسُ الثـاني فقد عَـرفَه قـابيلُ بعد ذلك بزمنٍ . .

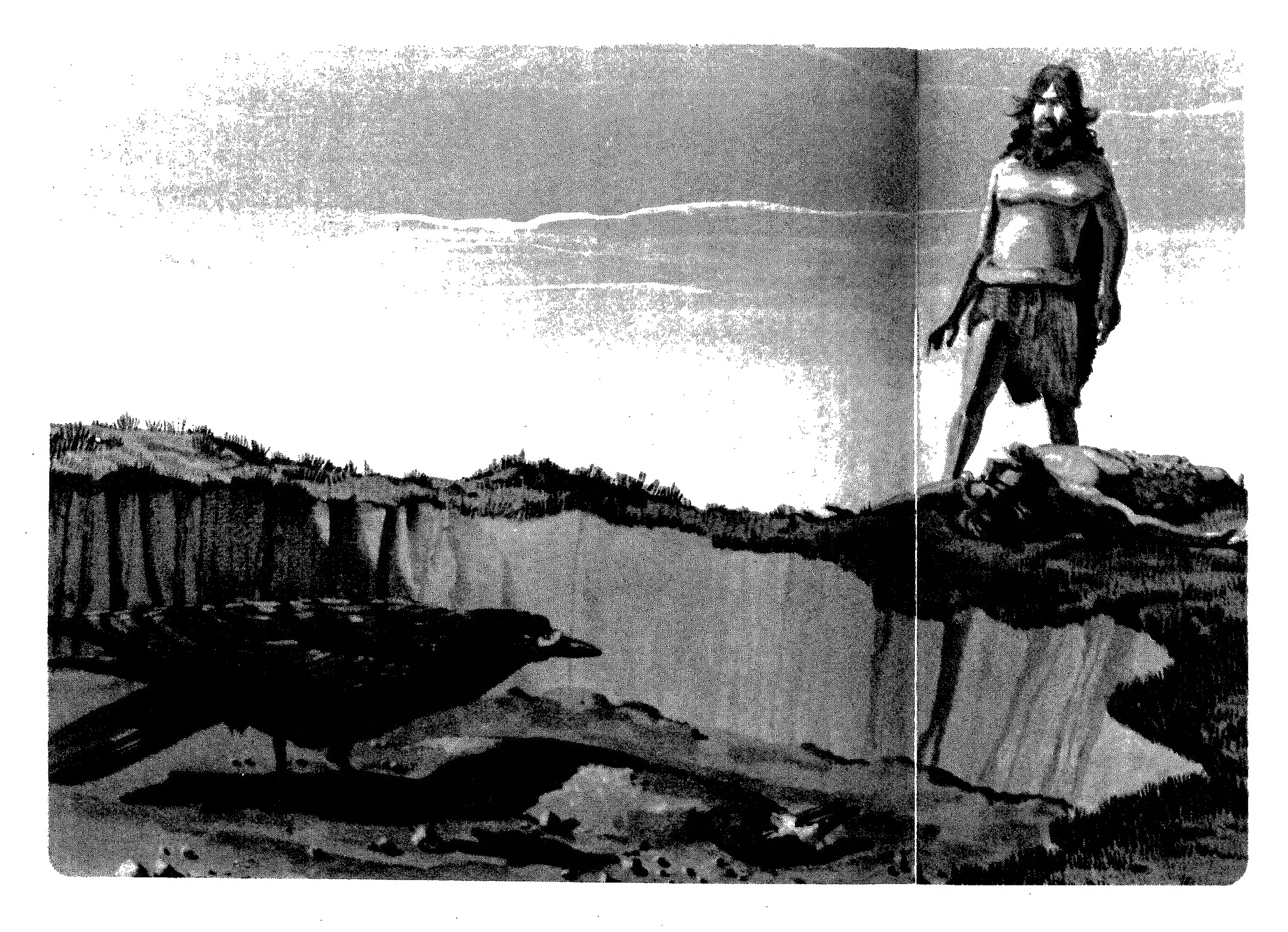
لقد عجزَ قابيلُ وحـدهُ عن دفنِ أخيهِ رغم أنه قتلهُ ، ولولا الغُـرابُ ما عـرفَ كيف يُواري جسَدَهُ الهامد . .

قـال لنفسـهِ : لم أعـرفْ كيف أدفُنُ أَخي ودفنَ الغُرابُ أَخاهُ . .

كـان هذا هـو الـدَّرسُ الأولُ الـذي تَعلَّمه قابيلُ . .

عَرفَ أنه كان أَقلَّ في ميزانِ الرحمةِ من الغُـرابِ . . والأصـلُ أنـه سيـدُ الكائناتِ .

ونهضَ قـابيـلُ وحفـرَ حُفرةً لأخيـهِ ودَفنـهُ فيها ، ثم تـذكَّر صُـراخَ الغُـرابِ



الحيِّ على الغُرابِ الميِّتِ فمزَّقَهُ النَّدمُ على جَريمتِهِ فأَصبحَ من النادِمينَ .

قال وهو يَنهـارُ على الأرضِ : ﴿ يَا وَيْلَتَـا أَعَجِزْتُ أَنْ أَكُـونَ مِثْـلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي ﴾ !

آنصَرفَ قَابيـلُ مُمتَقِعَ الـوجهِ مُتـرَعَ القلبِ بالنَّدمِ والهُمومِ .

وجـاءَ المساءُ ولم يعُـدْ هـابيـلُ . .

ومـرَّتِ الأمسِياتُ واللّيـالي ولم يعُدْ هابيلُ . .

سأَل آدمُ قابيلَ : أَين ذهبَ هابيلُ ؟

قابيلُ : لست أَعـرفُ أَين ذهب . .

وقـرأ آدمُ في عينيِّ آبنـهِ خَـطيئَتَـه . . وسأَلَه :

ـ قـابيلُ . . مـاذا فعلتَ بـأَخيـكَ هـابيلَ ؟ إن الله لم يَتقبـلْ قُربـانَك . . ماذا فعلتَ بأَخيكَ ؟

وتذكَّر قابيلُ قُـربانَـه الذي تَجـاوزتْهُ السماءُ . . تذكَّر كلِماتِ هابيلَ له . .

لقد أَشارَ يـومئذٍ إلى النَّـدمِ . . حثَّه عـلى النـدمِ حـين رفـضتِ السمـاءُ قُربانَه . .

لو أَنه عرفَ ندمَ التَّوبةِ الجميلِ على الـذُّنـوبِ لمـا أَهلكَـه نـدمُ الخَـطيئـةِ الفاجعِ . .

وكـانَ هذا هـو الدرسُ الثـاني الذي تعلّمهُ قابيلُ . .

آنتهى الأمـرُ ولم تعدْ لهـذا الدرسِ قيمةٌ . . صار قابيلُ قاتلاً . .

آنتهى الأمـرُ وفقـدَ طُمـأْنينـةَ نفسِـه وتَمـزَّق سـلامُـه الـدَّاخليُّ وأَصبـحَ من النادمين . . صارَ الندمُ هوخُبْزَهُ اليوميّ المُـر الذي قـدرَ عليـه أن يـأْكُلَه طِـوالَ حياتِه . .



خسِرَ قابيـلُ نفسَه بِسببِ جَـريمتِهِ ، وأَدركَ أن كـلَّ مَكاسِبِه من جـريمَتِـه لا تُسـاوي خِسارةَ نفسـه . . أَدركَ أنه من أَهــلِ النـارِ . . وأَدركَ أن شقيقَــه من أَهـلِ الـنعـيمِ . . وزادَ إحـسـاسُـه بالمرارةِ . .

وعرفَ آدمُ بما حـدثَ . . وزادَ ندمُ قابيلَ . .

في نفسِ الـوقتِ . . كـان أَبنـاءُ الشَّهيدِ هابيلَ يَكبُرونَ في السِّنّ . .

وكـان هذا إشـارةً إلى أَن الدُّنيـا مـا زالتْ تنجبُ الخيرَ وإن ملأَها الشرُّ . .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ
يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝
لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ
أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ
فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ
نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا
يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ
أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ

صدق الله العظيم

